

التفسير المختصر - سورة الأنفال (٨) - الدرس (٦-٣) : تفسير الآيات ٤-٢-٣ التعریف
بالمؤمنین

لفضیلۃ الدکتور محمد راتب النابلسی بتاريخ: ١٩٩٤-٠٧-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سیدنا محمد الصادق الوعد الأمین:

أیها الإخوة الكرام ؛ الآیات الثانية، والثالثة، والرابعة، من سورة الأنفال، وهي قوله تعالى:
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُتْبَعَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادُتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ وَمَمَّا رَزَقَنَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرَزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

هذه التعریفات للمؤمن لها وظیفتان.

الوظیفة الأولى: أن تعرف نفسك من خالها.

الوظیفة الثانية: أنها تحدد الهدف أمامك.

تعرف وتتجه، فلو قلت لك مثلاً: إن الوردة الطبيعیة تنمو، وهي ذات رائحة فواحة، وأنت عندك وردة لا تنمو، وليس لها رائحة فواحة، فمعنى ذلك أنها من بلاستيك، فهذا التعریف الدقيق للورد الطبیعی يجعلك تقیم ما عندك، فـ "إنما" أداة قصر وحصر، يعني المؤمن هكذا، وخلاف ذلك ليس بمؤمن، تقول: إنما العلم بالتعلم، يعني ليس ثمة طریقة أخرى لکسب العلم إلا بالتعلم، تقید القصر، مثلاً، تقول:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِ الْعُلَمَاءُ﴾

(سورة فاطر: ٢٨)

يعني العلماء وحدهم يخشون الله، وليس أحد سواهم.

يجب أن نعرف ماذا تعنى "إنما" ؟ إنما أداة قصر، وأداة حصر، إذا قلنا: شوقي شاعر، فقد يكون شوقي كاتباً كذلك وتاجراً، وحقوقياً، وقاصياً.

أما إذا قلنا إنما شوقي شاعر، يعني أنه شاعر فقط، فصرنا شوقي على الشعر، لو قلنا: إنما الشاعر شوقي، يعني ليس هناك شاعر آخر، هو وحده الشاعر، فإذا المؤمن عرف ماذا تعنى كلمة "إنما"، وقرأها في القرآن الكريم يصبح فهمه للآلية دقيقاً.

قال لك:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(سورة الحجرات: ١٠)

يعني إن لم تشعر بهذه الأخوة مع المؤمنين فلست مؤمناً، إذا كنت تتغضبهم وتحسدهم، وتتمنى أن يفشوا الخبر السيئ عنهم، تتمنى تدميرهم، فلست مؤمناً قطعاً، لقوله تعالى:

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةً تَسُؤْهُمْ﴾

(سورة التوبه: ٥٠)

فقد صاروا منافقين، فحيثما قرأت "إنما" في القرآن الكريم مثل:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

ومثل:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

ونحو:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

إن لم يكونوا كذلك فليسوا مؤمنين، أما لو قلنا: المؤمنون وجلت قلوبهم، فليس في الآية قصر، وجلت قلوبهم أو لا، وغيرهم قد وجلت قلوبهم، أما إذا قلنا:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

قصرنا هذا الحال النفسي على المؤمنين، فمن لم يشعر بهذا الحال النفسي فليس مؤمناً، ولقد أردت من هذه اللقطة، أو من هذه النظرة اللغوية، أنكم كلما قرأتم آية قرآنية فيها كلمة: "إنما" فاعلموا أن "إنما" تقيد القصر والحصر، ولو أن الله عز وجل قال: العلماء يخشون الله، يعني هذا الكلام أن غير العلماء كذلك يخشون الله، أما إذا قلت:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

يعني العلماء وحدهم وليس أحد سواهم يخشون الله، إذا قلت: المؤمنون إخوة، هذا لا يمنع أن يكون الكفار إخوة أيضاً، والمنافقون إخوة، أما إذا قلت:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

أي الأخوة محصوره ومقصوره بين المؤمنين، ومن لم يشعر بهذه الأخوة فليس مؤمناً، والكلام واضح.

وآيات اليوم التي نحن بصدده الاستفادة منها:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

يعني أن الله عز وجل يذكر بياته الكوبانية، يذكر بياته التكوينية، يذكر بياته القرآنية، وتذكر أيضاً أسماؤه الحسنى، تذكر صفاته العظمى، يذكر فضله، تذكر عظمته، يذكر حلمه، تذكر رحمته، تذكر قدرته، ثم لا تضطرب ، ولا تهتز لك حاسة ، ولا تشعر بقشعريرة بجلدك، لا تشعر بوجل في قلبك، لا تضطرب ، لا تبكي لا تتأثر، فلست إذا مؤمناً، فالقلب ميت.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾

(سورة النحل: ٢١)

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبورِ (٢٢)﴾

(سورة فاطر: ٢٢)

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

إِذَا هَذِهِ الْآيَةُ مِقِيَّاً وَهَدْفُ، هَذِهِ هُوَ الْهَدْفُ، وَذَلِكَ هُوَ الْمِقِيَّاً، قَسْ نَفْسَكَ، الْمِنْزَرُ مِنْهُ سَانْتِي، عِنْدَكَ قَطْعَةُ قَمَاشٍ قَسْهَا، أَنْتَ ظَنِّنْتَهَا سَتَةُ أَمْتَارٍ، وَهِيَ مِنْزَرٌ وَاحِدٌ، الْمِقِيَّاً أَمَامَكَ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

لَذُكُّ الْعِلْمُ غَذَاءُ الْعُقْلِ، وَالذِّكْرُ غَذَاءُ الْقَلْبِ، وَالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ غَذَاءُ الْجَسْمِ. أَنْتَ أَيَّهَا الْأَخْ الْكَرِيمُ، بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى أَغْذِيَّةٍ ثَلَاثَةٍ؛ غَذَاءُ لِجَسْمِكَ، هَذِهِ شَيْءٌ مَعْرُوفٌ، وَغَذَاءُ لِعَقْلِكَ، وَهُوَ الْعِلْمُ، غَذَاءُ لِقَلْبِكَ، وَهُوَ الذِّكْرُ.

وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

(سُورَةُ الرَّعْدِ: ٢٨)

اسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

((إِنَّ الْقُلُوبَ لِتَصْدَأُ، فَيْلٌ وَمَا جَلَوْهَا؟ قَالَ: ذَكَرُ اللَّهِ، فَإِذَا أَرْدَتَ أَنْ تَطْمَئِنَّ، أَنْ تَسْتَقِرَّ، أَنْ تَرْتَاحَ نَفْسَكَ أَنْ تَسْعَدَ، فَأَكْثَرُ مِنْ ذَكَرِ اللَّهِ، أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ وَخَيْرِكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ، وَخَيْرِكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْهُ عَدُوكُمْ، فَيُضَرِّبُوهُمْ أَعْنَاقَكُمْ وَتَضَرِّبُوهُمْ أَعْنَاقَهُمْ، قَالُوا: بَلِّي، قَالَ: ذَكَرُ اللَّهِ)).

لَذُكُّ الْعِلْمُ يُغَذِّي الْقَلْبَ، وَكَيْ يَذْهَبَ عَنْهُ الْقَلْقُ وَالْخُوفُ وَالْقَهْرُ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

الآن:

﴿وَإِذَا تُلِيتُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾

الْعَقْلُ يُؤْمِنُ، لَكُمْ كَلَمَا رَأَيْتُمْ جَدِيدًا وَآيَةً جَدِيدَةً ازْدَادَ إِيمَانًا، لَذُكُّ الْعَلَمَاءِ: الإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، يَزِيدُ بِالْأَدْلَةِ وَالآيَاتِ وَالرَّوَايَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَيَنْقُصُ بِالْإِهْمَالِ، إِذَا تَوَقَّفَ الْإِنْسَانُ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، فَمَثَلًاً طَبِيبُ، إِذَا بَقِيَ عَلَى مَعْلُومَاتِ الْجَامِعَةِ، فَبَعْدَ عَشَرِ سَنَوَاتٍ يَنْسِي مَعْظُمُهَا، يَبْقَى عَلَى مَعْلُومَاتِ بَسِيِّطَةٍ، فَالْطَّبِيبُ إِذَا لَمْ يَتَلَقَّ الْعِلْمَ بِشَكْلِ مُسْتَمِرٍ فَلَنْ يَوَاْكِبِ الْعَصْرَ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي زِيَادَةٍ فَهُوَ فِي نَقْصَانٍ، إِذَا أَنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى غَذَاءٍ لِلْقَلْبِ:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

وَبِحَاجَةٍ إِلَى غَذَاءِ الْعُقْلِ:

﴿وَإِذَا تُلِيتُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾

مَحْصَلَةُ غَذَاءِ الْقَلْبِ مَعْ غَذَاءِ الْعُقْلِ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، حَالُ التَّوْكِلِ لَا يَعْرَفُهُ إِلَّا مَنْ ذَاقَهُ، يَعْنِي مَلِكُ الْمُلُوكِ، يَدْافِعُ عَنْكَ، يَحْبُّهُمْ وَيَحْبُّوْنَهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَدًا﴾ (٩٦)

(سُورَةُ مَرِيمٍ: ٩٦)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(سُورَةُ الْحِجَّةِ: ٣٨)

فربنا عز وجل يحفظ المؤمن قال سبحانه:

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾

هذا الدين كله إحسان واتصال، حركة أفقية نحو الخلق بالإحسان إليهم، وحركة علوية نحو الله بالاتصال به، هذا الدين، هذا الدين في أدق تعاريفه، وفي أوجز تعريفاته، اتصال بالخلق، وإحسان للمخلوق.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾

يصلّي وينفق، ويدرك الله ويزداد علمًا، العلم غذاء لعقله، والذكر غذاء لقلبه، ويخدم الناس ويتصل بالله.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

لهم درجات عند ربهم ومغفرة، للماضي، ورزق كريم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، آيات موجزات عرفتك بالإيمان، الإيمان غذاء للعقل، بالأيات الكونية، والتکوینیة، والقرآنیة، والإيمان ذكر للقلب، للطمأنينة، والإيمان اتصال بالخلق، وإحسان للمخلوق.

النتائج، التوكل، وعلى ربهم يتوكلون لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم، هذا الطريق، يعني أنّ شخصاً معه عملة، بعضها مزور، أخذ مقياساً ليفحصها، فوجد ثلاثة أرباعها مزوراً، انتبه لهذا مقياس لفحص العملة، وهذه الآية مقياس فحص، وتحديد هدف، تُعرفك من أنت، تحجم حالك، لأنّ كل إنسان لا يرضي عن رزقه لكنه يرضي عن عقله، يظن نفسه أعلم الناس، ويرضي عن إيمانه، ويظن أنه في صفة الصديق، لكن لا شيء في حياته العملية يؤكّد ذلك.

إذاً هذه الآيات، تعريف، تحجيم، تقييم، قياس، وهدف، اجعلها هدفاً، اجعل هدفك أنك إذا ذكرت الله طرب قلبك، وإذا تلوت آياته ازداد إيمانك، واجعل همك الأول الاتصال بالخلق، والإحسان إلى المخلوق، عندئذ يحسن توكلك على الله، ويغفر الله لك ما سلف منك، ويرزقك رزقاً كريماً.

والحمد لله رب العالمين